من أدب التاريخ

# شـــاعر ومنجم ...

## للأستاذ محمود عزت عرفه

العهد عهد الخليفة المستعين أبي العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ، ذلك المتولى فى الخامس من ربيع الآخر عام ٢٤٨هـ ، إثر وفاة الخليفة المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل وقاتله . والشاعر هو الوليد بن عبيد الله البحترى المكنى أبا عبادة ؛ أما المنجم فهو جعفر بن محمد البلخى ، المكنى أبا معشر

ولم يكن أبعد من هذين الرجلين على عهدهما صيتاً ، ولا أثبت منهما فى قنيهما مقاما ؛ ومع ذلك فقد لقيا أيام المستعين من المجافاة وللإعراض وقلة المبالاة ما ضاق معه عيشهما ، وانسدت به مسالك الحياة الهنيئة دونهما

فقد كان الأول شاعر المتوكل الأثير ... شهد بعينيه مصرعه الرهيب على يد ابنه وولى عهده ، وسمع بأذنيه ـ بعد حين ـ قصة نقض البيعة الموثقة التى عقدها المتوكل لولده المعتز من بعد أخيه ؛ فكان حزن الشاعر على الخليفة المصروع لا يوازيه إلا عطفه على الأمير المخلوع

ولما عجلت بالمنتصر ميتته المريبة فاق بها أول ما يلقاه كل عاق ناكث للعهود ، بادر نصراؤه من قواد الأتراك إلى تنصيب المستعين بالله على عرش الخلافة ؛ إمعاناً منهم فى إقصاء المعتز الذى طال بتدبيرهم حرمانه ، وتنزت بسبب ذلك فى صدره السخائم والأحقاد عليهم

وزادوا على هذا أن ألقوا بالمعتز فى غيابة السجن ، مع أخيه المؤيد ثالث أولاد المتوكل وأولياء عهوده ؛ فلم يكن لشاعر كالبحترى أن يظهر فى مثل هذه الفترة ، أو أن يؤمل عند المستعين وشيعته جاهاً ...

ذلك موجز حديث أبى عبادة ؛ أما صديقه أبو معشر فأيسر ما نقول فيه أن المستعين كان يمتد له من الإحسان ذنباً ، ويبتغى عليه ببالغ العقوبة أشد ما يكون ترقباً منه للاحسان والمثوبة ؛ حتى لقالوا إنه ضربه مرة أسواطاً على ما صح من حدسه فى أمر أخبر بوقوعه قبل حينه ، فكان أبو معشر يعجّب الناس من ذلك ويقول : أصبت فعوقبت !

أمضى الصديقان عاماً من خلافة المستعين وهما أبأس ما يكون حالاً ، وقد انعقد واهى أملهما على سجين قصر الجوسق بسامرّاء ، أبى عبد الله المعتز ، وكان معتقلاً هنالك مع أخيه ابراهيم المؤيد . ولقد كان من حقهما أن يستمسكا بهذه الآمال التى عقداها على الأمير المسجون لما كان يشهدانه من اضطراب حبل السياسة فى يد المستعين ؛ إذ راح الأتراك يقتتلون بدافع أطماعهم حول دعائم العرش التى أقاموها بأذرعهم ، وبلغ من ضعف نفوذ الخليفة يومئذ أن امتدت أيديهم إلى وزيره ( أتاش ) وهو قائم بين يديه فى قصره ، فسلبوه الحياة مع كاتبه ( شجاع ) ، وقد حدث ذلك يوم السبت رابع عشر ربيع الآخر عام ٢٤٩هـ

ومن الطريف أن نرى البحترى ـ وقد قرت عينه بهذا الحادث دون شك ـ يبعث إلى المستعين بهذه الأبيات مادحاً ومهنئاً فى موضع كانت السخرية فيه أقرب إلى لسانه ، والتشفى أعلق بفؤاده :

لقد نُصر الإمام على الأعادى ... وأضحى الملك موطودَ العماد
وعرفّت الليالى فى ( شجاع ) ... و ( تاشٍ ) كيف عاقبة الفساد
تعادى منهما غىٌّ فلجّا ... وقد تُردي اللجاجة والتمادى
وضلا فى معاندة ( الموالى ) ... فما اغتبطا هنالك بالعناد !

وما نشك فى أن البحترى كان أصدق فى شعوره ، وأبلغ فى الإبانة عن وليجة نفسه ، حين انكفأ غبّ ذلك إلى بيته يناجى خادمه « نائلا » بخفى أمانيه فيقول :

ألا هل يحسن العيش ... لنا مثل الذى كانا ؟
وهـــل ترجع يا نائ ... لُ بالمعتز دنيانا ؟
عدمت الجسدَ الملقَى ... على كرسى سليمانا ...
فقـــد أصبح للعُـ ... ـفة نقـلاه وبقلانا !

* * *

إزداد نفوذ المستعين بين رعاياه تقلصاً ، حتى لأصبح « الجسد الملقى » حقيقة كما وصفه البحترى . وانتهى الأمر بأن انحازت إليه شعبة من الأتراك على رأسها وصيف وبُغا ؛

وراحت شعبة أخرى يقودها باغر تدبر له الكيد وتمشي حوله الضراء من كل سبيل . ثم قتل باغر بتدبير من حزب الخليفة ، فثارت ثائرة أنصاره حتى لم يجد المستعين بدًّا من الانحياز إلى بغداد ( في المحرم عام ٢٥١هـ )

وتناهت هذه الأخبار إلى البحتري وأبي معشر وهما في معتكفهما ، فأقبلا يتداولان في الأمر ملياً ، ويجددان من قديم أمنيتهما ، وقد أملا أن تطرد الحوادث في طريقها حتى تفضي بهما إلى كل ما يسر ويرضي ... ثم انبعثا يقولان : وماذا علينا والحال كما نرى ، أن نمضي إلى المعتز بالله في محبسه فنتودد إليه ونؤصل عنده أصلاً ؟

وطابت لديهما الفكرة جِدًّا في إنفاذها ، واحتالا حتى توصلا إلى لقيا الأمير في معتقله . ولم يكن البحتري قد أعد لهذا اللقاء شعراً ، وأي شعر يقال لسجين يترقب الموت في كل لحظة !

على أنه فكر هنيهة حتى استرجع في ذهنه أبياتاً له قديمة كان قد واسى بها أبا سعيد الثغري وهو في معتقله أيام المتوكل ، فأعاد تحريرها في رقعة لطيفة ، وكان أبو معشر قد هيأ صحيفة في أحكام النجوم سهر على ضبطها وتصحيحها الليالي الطوال

وفي إحدى غرف الحوسق مثل الرجلان أمام المعتز فواسياه بما تهيأ لهما من كلام . ثم استأذن البحتري في الإنشاد ، وتلا أبياته من رقعتها ... كأنه نظمها من يومه :

جُعلنا فداك ، الدهر ليس بمنفكّ
من الحادث المشكوّ والنازل المشكي

وما هذه الأيام إلا منازل ... فمن منزل رحب ومن منزل ضنك
وقد هذبتك الحادثات ، وإنما ... صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

أما في نبي الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الجور والإفك؟
أقام جميل الصبر في السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك
على أنه قد ضيم في حبسك العلا ... وأصبح عز الدين في قبضة الشرك

وأصغى المعتز إلى الشعر في تأثر ، ثم تناول الرقعة ودفعها إلى خادمه وقال : احفظ هذه وغيبها ، فإن أفرج الله عز وجل عني فذكرني بها لأقضي حق هذا الرجل الحر

وتقدم أبو معشر فقال : إني جئتك والله أيها الأمير بأعظم البشرى وأصدقها . كنت قد أخذت مولدك يوم عقد لك العقد ، ويوم عقدت البيعة للمستعين ، فنظرت في ذلك ، وصححت الحكم لك بالخلافة بعد فتن وحروب تجري . وصح عندي الحكم على المستعين بالقتل ، وهاك صورة مما عملت

فتناول المعتز الصحيفة مستبشراً ، وشكر للرجلين نبلهما ووفاءهما ، ثم وعدهما ومناهما . فخرجا وهما أكثر الناس رضاء وأرحبهم أملاً ...

* * *

وانقضى شهر على حادث المستعين إلى بغداد جرت أثناءه مداولات غير مثمرة ، ثم آب الثائرون إلى سر من رأى فأخرجوا المعتز من الحوسق وبايعوه بالخلافة . واضطرمت نار الفتن والحروب عاماً كاملاً خلع في نهايته المستعين ، ثم نقل مخفوراً إلى « واسط » حيث قتل بعد أشهر . واستقر أمر الخلافة للمعتز ... وهكذا صدق فأل البحتري وصحت نبوءة أبي معشر

ومثل الصديقان بعد حين أمام المعتز فهش لهما وبش ، ورفع من مجلسهما حتى رمقتهما العيون بالغبطة ، ثم قال لأبي معشر : لم أنسك منذ لقيتني ، ولقد صح حكمك ، وأنا مُجرٍ لك في كل شهر مائة دينار رزقاً وثلاثين نُزُلاً ، وجاعلك رئيس منجمي دار الخلافة . ثم قد أمرت لك عاجلاً بإطلاق ألف دينار صلة ... فقبض أبو معشر ذلك كله من يومه

أما البحتري فقد أنشد في ذلك اللقاء بائيته المشهورة :

بجانبنا في الحب من لا نجانبه ... ويبعد عنا بالهوى من نقاربه

وفي القصيدة مدح للمعتز وهجاء للمستعين ؛ ونحن ندع للقارئ أن يراجعها بتمامها في ديوان البحتري ، ولكنا نختص مع ذلك بالتسجيل هنا قوله :

بكى المنبر الشرقي إذ خارَ فوقه ... على الناس ثور قد تدلت غباغبه
تخطى إلى الأمر الذي ليس أهله ... فطوراً ينازيه وطوراً يشاغبه
ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ... ليعجزو ( المعتز بالله ) طالبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر ... وعُرِّي من بُرد النبي مناكبه
وقد سرني أن قيل وُجِّه عارياً ... من الشرق تُحدى سفنه وركائبه